سابقة الفلسفة العامرب السنة التوجيهية (٧٢٦)

٦ ـ فى الوجود وعلله

للأستاذ كمال الدسوقي

. سينا والإشارات :

تجدون الترجمة الكاملة لحياة ابن سينا وكتاباته ، وأسفاره ربه وأشعاره ؛ كما دونها ورواها تلميذه أبو عبيد الجوزجانى ؛ اريخ الحكماء لابن أبى أصيبعة (جزء ٢ ص ١ — ١٦) يوجد فى مكتبات مدارسكم وأقاليمكم ، وفى مقدمة كتاب ى المشرقيين — الذى قالوا إنه القسم المنطق من كتاب شفاء » لابن سينا ، والذى نشر فى مصر غير مرة : تجدون كله فى هذين المرجعين وفى غيرهما مما لا تحتاجون معه إلى من الإيضاح .

ومنه يتبين لكم أن ابن سينا (٣٧٣ — ٤٢٧ هـ) لم يبلغ سة عشرة حتى كان قد ألم بالكتب الأولية فى الحكمة رياضية سية ومنطقية ، أما ما بعد الطبيعة ، فقد هداه إلى فهم ما استغلق اليم أرسطو فيها كتاب أبى نصر الفارابى ، كما فقهه إسماعيل ى » من قبل فى مسائل الفقه والخلاف ، وأبو عبد الله الناتلى ف فى الحساب والهندسة وعلم الهيئة (الفلك) ورياضيات س ؛ وأنه منذ ذلك الحين قد دأب على المطالعة والدرس حتى ه فى هذه السن أن يلحق بخدمة الأمير نوح بن منصور ى فيمن لحق من الأطباء المعالجين ؛ وأنه انفرد من بينهم فوف على مكتبة الأمير والإحاطة بما فيها ، حتى اتهم بحرقها بعلم ما حوت ؛ وأنه قد حصل حينئذ كل ما صار له من علم ة ؛ فلم يزد على علمه فيما بعد ذلك شيء — كما قال هو ؛ وأنه ى بعدئذ يقرأ كتاباً على الولاء ، بل يقصد المواضع الصعبة ل المشكلة ليتبين ما قاله صاحب الكتاب فيها — على نحو تنا الجوزجانى المذكور .

أتم الشيخ الرئيس مرحلة الدرس وهو ابن ثمانى عشرة وبدأ يكتب ويصنف ، وكانت تصانيفه فى ذلك الحين على ة الأرسطية ، تأخذ معظم مادتها من هذه الفلسفة اليونانية ولا بالمنطق الآلة التى تعصم الذهن من الخطأ فى التصور والتصديق والاعتقاد الصحيح ، ومثنية بعد بالطبيعيات وما يتعلق بها من رياضيات وحساب وهيئة وموسيقى ، ومختتمة فى النهاية بما بعد الطبيعة أو العلم الإلهى كما سماه الأسلاميون ملحقين به الحديث عن النبوة والمعاد والخلاص من الدنيا ، تجد هذه الفلسفة الأرسطية فى مقامها فى أهم كتب ابن سينا الأولى « كالمجموع » « الشفاء » ومختصره « النجاة » وفى رسالته فى النفس التى كتبها إلى الأمير نوح بن منصور والتى تشبه أن تكون تعريباً لكتاب أرسطو « فى النفس » .

أما الكتاب الذى بين أيديكم فهو من نوع مخالف لنوع هذه الكتب : وهو يمثل الفلسفة المشرقية فى تمام نضجها عند ابن سينا وغيره ، تلك الفلسفة التى لا تأخذ عن أرسطو إلا بمقدار ما تأخذ عن أفلاطون وأفلوطين والمتكلمين والصوفية من الإسلاميين والفرس ، مكونة من هذه فى جملتها مذهبا خاصاً ، وروحاً جديدة ، فيها طرافة وفيها عمق وامتاع هى بعض ما يتميز به كتاب « الإشارات والتنبيهات » لابى على الحسين ابن عبد الله بن سينا .

ولعل الظروف التى أحاطت بتأليف هذا الكتاب قد هيأت له أن يكون على هذه الصورة من العمق والجلال : فهو لم يكتبه استجابة لطلب أصحابه أو أميره كما ترى فى سائر كتبه إنما كتبه وهو سجين بقلعة « فردجان » حين اتهم بأنه يكاتب سراً علاء الدولة أمير أصفهان . ويصف هو محنة السجن هذه التى كتب أثناءها هذا الكتاب بقوله فى آخر صفحة من إشاراته : وقت معظمها فى حال صعب لا يمكن أصعب منها حال ، ورسمت أغلبها فى مدة كدورة بال ، بل فى أزمنة يكون كل منها ظرفاً لغصة وعذاب أليم ... ما مضى وقت ليس عينى فيه مقطراً . ولا بال مكدراً ... الخ ص ١٤٥ حـ ٢) كما أن سجنه عند الإسماعيلية (الباطنية) هؤلاء قد جعله يذهب مذهبهم فى التستر والإخفاء ، والضن بكتابه ذاك على من لم يؤت الفطنة أو الدربة ، أو كان من الجاهلين المبتذلين ، والملاحدة الكابرين ؛ وفى التوصية بالحرص على تخير من يهدى إليهم هذا الكتاب واختبارهم ، صوناً لهذا العلم من الضياع — كما نبه على ذلك فى آخر الكتاب (ص ١٤٣ — ١٤٤ حـ ٢) وكرر ذلك التنبيه فى أوله (ص ٢ حـ ١) بشروط واختبارات خاصة ، نرجوا أن تتوافر كلها لطلاب السابقة حتى يتهيأ لهم أن يقفوا على حقيقة هذا الكتاب

وكما يتضح من أول كلمة للشيخ أبي علي في كتابه : الإشارات إنما تشير إلى الأصول — والتنبيهات تنبه على الجمل ، هذه تتعلق بالمبادىء العامة ، وتلك بالقضايا الخاصة ، والذي تشير له هذه أو تنبه عليه تلك ؛ مسائل من العلم الطبيعي والإلهي مختلطة ، يتدرك فيها ابن سينا من المحسوس إلى المعقول ، ومن المادة إلى الصورة ، ولذا نجده قد قسم أبواب هذا الكتاب إلى أنماط — على عكس المنطق الذي تنقسم أبوابه عنده إلى أنهاج — لأن النمط ضرب من البسط والتمهيد يقصد لذاته — بينما النهج ممهد لسلك سالك إلى غاية معينة بما يحقق الغرض من المنطق كعلم لمناهج العقل — وكم في النمط الواحد من « إشارة » إلى أصل من الأصول ، « وتنبيه » على جملة من الجمل ، أو « وهم » من الأوهام ، « وتذنيب » أو خاتمة ونتيجة لكل ذلك .

والكتاب الأول من الإشارات في خمسة أنماط . يهمنا منها الرابع « في الوجود وعلله » (ص ١٨٩ — ٢١٤) الوجود المطلق الذي لا علة له على الإطلاق ، أي الوجود في ذاته من حيث هو وجود ؛ والوجود الآخر الذي هو محمول على أشياء مختلفة — هي معلولة له ، والوجود عارض فيها وليس من ماهيتها ، ومباحث هذا النمط — كما لخصها الرازي — ثمانية : (١) الرد على من لا يؤمن بوجود إلا للمحسوس ، (٢) العلل بوجه عام (٣) إثبات واجب الوجود (٤) ووحدته (٥) وتجرده عن الكثرة والنوع والجنس والعقل والحس ، (٦) ومن الضد والشبيه ، (٧) هو عاقل ومعقول (٨) تلك خير الطرق لإثباته .

والنشرة المتداولة لهذا الكتاب ، هي تلك المطبوعة في المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٢٥ هـ ، المشتملة على شرحي العلامة فخر الدين الرازي (في الهامش الخارجي) والخاجه نصير الدين الطوسي (هكذا تنطق في الفارسية بمعنى الأستاذ) — وكلاهما عالم محقق قام على شرح الإشارات مع فارق بينهما غير كبير — لا يعنيكم أمره — وحسبكم أن تتخيروا لأنفسكم أي الشرحين على هذا النص (المذكور في كليهما بين أقواس) — فإذا تعذر عليكم تفهم الواحد فليكمل بشرح الآخر .

٢ — العلل الأربع :

وابن سينا — قبل أن يشرع في تفصيل علل الوجود — ينبه على ما قد يتبادر لأذهان العامة من أن كل موجود فهو محسوس ، وأن كل ما لا وضع له في المكان وفي الجهة وفي سائر أحوال الجسم المحسوس فلا نصيب له من الوجود — وهو رأي الشبهة ومن لف لفهم — فإننا حين نتأمل هذه المحسوسات الجزئية نجدها تشترك في معنى كلي مجرد — كالإنسان الذي أفراده زيد وعمرو من الناس — الواحد منها محسوس ، له وضع ومقدار وأين وكيف ، ومن هذا المحسوس يأتي معنى الإنسان المجرد من الكم والكيف والأين والوضع الذي هو الإنسان الحقيقي — والمعنى الكلي للانسان من حيث هو حيوان ناطق .

فإن قيل إن هذا الإنسان بالمعنى الكلي الثاني موجود في العقل لا في الخارج ، ونحن نقصد الوجود الخارجي لا الذهني ؛ قلنا إن معنى الإنسانية لا يوجد في الذهن إلا مقترناً بالإنسان الواقعي المحسوس المشترك في التصور العقلي المجرد لكلمة إنسان . وسقط بذلك الاعتراض .

وإن قيل إن للانسان هنا كفرد تصوراً ذهنياً كلياً من حيث هو يتركب من أعضاء كثيرة مختلفة يشتمل عليها مفهوم كلمة « إنسان » بالمعنى الفردي ، قلنا إنه يسهل دفع هذا الاعتراض بتصور نفس الحال في كل عضو من أعضاء الإنسان أي أن يكون لكل منها وجوده في الذهن كلياً مجرداً فضلا عن وجوده في الواقع والحقيقة .

وحجة أخرى تلزم أولئك الذين لا يعترفون بوجود إلا للحسي من الأشياء ، والموهوم من الوجودات ، هي أنه عن المحسوسات يأتي الحس ، وعن الموهوم ينشأ الوهم ، وهي ليست أموراً جسية ، فإن أنكروها وجب أن ينكروا ما يتعلق بها والعقل الذي يحكم عليها ويميز بينها ، دون أن يكون محسوساً ولا موهوماً هو الآخر . وقل مثل ذلك في طبائع الأمور المدركة بالوهم كالعشق والخجل ، والشجاعة والجبن — التي ليست تدرك بالحس ، وإن تعلقت بالمحسوس والموهوم من الأشياء . والنتيجة التي يخلص منها الشيخ الرئيس بعد إدحاض هذه الأوهام ودفع ما يعترض به عليها — أن كل موجود فان له ماهية مجردة عن كل مشخصاته الحسية — هي التي يتحقق بها وجوده ، وإن لم تكن محسوسة ولا موهومة .

ذلك أن الشيء إنما يتحقق وجوده بإحدى اثنتين : إما بماهيته وحقيقته كالمثلث من حيث هو سطح وأضلاع تحيط به وتحدده — أي من حيث مادة المثلث والصورة الداخلة له من مجموع هذه المادة أي المثلث بالقوة En Puissance والمثلث بالفعل En Acte وإما بوجود ذاته من حيث موجده أو المؤثر